﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ١١﴾ [الفتح: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا ذكرَ أهلَ بيعةِ الرِّضوانِ أتبعَه الخبرَ عنِ المنافقين المتخلِّفين

لمّا فصَّلَ الخطابُ الإلهيُّ حالَ المنافقين عطفَ بعده على ذِكْرِ المُتخلِّفين من الأعراب، وهم طائفةٌ نكصوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، إذْ داخلَ قلوبَهم وهَنٌ، وظنّوا برسول الله الظنّ السّوء، فقالوا: إنّ أهل مكّةَ يُقاتِلونَ عن ديارِهم وهم في عُقر دارِهم، فكيف يكونُ حالُنا إذا صرنا في بلادِهم وأحدقَ بنا العدوّ من كلّ صوبٍ؟ فاحتجبوا عن الجهاد، وتخلّفوا عن الرَّكْب، ثمّ جاؤوا يعتذرون كذبًا وزورًا، وقالوا: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ﴾، وما قالوه بلسانِهم إلّا نفاقًا، وقلوبُهم به مُكذِّبة، وما ذلك الاعتذارُ ليصرفَ عنهم ضُرًّا قدّره الله، أو ليجلبَ لهم نفعًا لم يُكتب لهم، فإنّ الأمرَ كلَّه بيد الله العليم بذات الصدور، الخبيرُ بسرائر الأمور[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾: (خلف) أصولٌ ثلاثةٌ: أحَدُها: أنْ يجيءَ شيءٌ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه، والثّاني: خلافُ قُدّام، والثّالثُ: التَّغيُّر. والخَلَفُ: ما جاءَ بعد؛ قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ [الأعراف: 169]. والخِلّيفَ: الخِلافةُ، وإنَّما سُمّيت (خلافة)؛ لأنَّ الثّاني يجيءُ بعد الأوَّلِ قائمًا مقامَه. وخَلَّفتُهُ: تركتُه خَلْفي، قال تعالى: ﴿فَرِحَ

(1) انظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 74، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 299.

﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة: 81]. والخالف: المُتأخِّرُ لنُقصانٍ أو قُصورٍ كالمُتخلِّف، قال تعالى: ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التَّوبة: 83][1]. وقولُه تعالى: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾؛ أي: الذين خلَّفهم الله عن شرف الجهاد مع النّبيِّ ﷺ.

2) ﴿ٱلْأَعْرَابِ﴾: (عرب) أصولٌ ثلاثةٌ؛ أحدُها الإنابة والإفصاح، والآخَرُ النَّشاطُ وطيبُ النَّفس، والثّالثُ: فسادٌ في جِسْمٍ أو عُضو. يُقال: أعْرَبَ الرَّجُلُ عن نَفْسِه، إذا بيَّنَ وأوْضح، وإعرابُ الكلام أيضًا من هذا القياس؛ لأنَّ بالإعرابِ يُفرقُ بين المعاني في الفاعلِ والمفعول، والنَّفي والتَّعجُّبِ والاسْتفهام. والعَرَبُ: ولدُ إسماعيلَ عليه السلام - و(الأعرابُ) جمعُه في الأصل، وصار ذلك اسْمًا لسكّانِ البادية، قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التَّوبة: 97][2] وهو المعنى المقصود في الآية.

3) ﴿شَغَلَتْنَآ﴾: (شغل) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على خلافِ الفراغ، تقولُ: شَغَلْتُ فُلانًا فأنا شاغلُه، وهو مشغول، وشُغِلْتُ عنكَ بكذا، ويُقال: شُغْلٌ شاغِلٌ، وجمعُ الشُّغلِ: أشغال، واشْتُغِلَ فلانٌ بالشَّيء، وهو مُشتَغِلٌ. والشَّغْلُ والشُّغلُ: العارضُ الَّذي يُذهِلُ الإنسان، قال ﷻ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [يس: 55][3]، وقولُه تعالى: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ أيْ: شَغَلَتنا عنِ الخروجِ معكَ معالجةُ أموالِنا وإصلاحُ معايشِنا وأهلونا[4].

4) ﴿يَمْلِكُ﴾ (ملك) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ وصِحَّة، يُقال: أملَكَ عجينَه: قوَّى عَجْنَه وشدَّه، وملَّكتُ الشَّيءَ: قوَّيتُه، والأصلُ هذا، ثمَّ قيل: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يملِكُهُ مَلْكًا، والاسْمُ: المِلكُ؛ لأنَّ يدَهُ فيه قويَّةٌ صحيحة، فالمِلْكُ: ما مُلِكَ من مال، والمُلْكُ: ضبطُ الشَّيءِ المتصرَّفِ فيه بالحكم، والمِلْكُ كالجِنْسِ للمُلْك، فكلُّ مُلكٍ مِلْك، وليس كلُّ مِلكٍ مُلْكًا، قال تعالى: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس: 31][5]. وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ أيْ: مَنْ ذا الَّذي يقدِرُ على دفعِ ما أرادَ الله بكم من خيرٍ أو شرّ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (خلف).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (عرب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (شغل).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 211.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (ملك).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 211.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَـنْ تخلَّفَ عن رسـولِ اللـه ﷺ لانْشغالِه بالدُّنيا لقيَ ما لا يَرْضَى

أخبرَ اللّه تعالى نبيَّهُ ﷺ عن حالِ الأعرابِ الذين تخلَّفوا عن الخروجِ معهُ وآثروا السُّكونَ إلى الأهلِ والأموالِ، فلمّا عادَ رسولُ اللّه ﷺ اعتذروا بأنَّ الشُّغلَ صدَّهم، والعُذرَ ألجأَهُم، وسألوا أن يستغفرَ لهم، لا عن ندمٍ منهم صادقٍ؛ بل كان قولًا باللِّسانِ مُداراةً ومُصانعةً، فأُمِرَ النبيُّ ﷺ أنْ يردَّ عليهم بما يكشفُ سترَهم، ويُظهِرُ نفاقَهم، فقالَ اللّه تعالى: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ أي: إن اللّه قد اطَّلعَ على مكنونِ صدورِكم، وعَلِمَ حقيقةَ أمرِكم، فلا يقدِرُ أحدٌ أن يردَّ ما أرادَه اللّه فيكم؛ فهو العليمُ بسرِّكم، الخبيرُ بضمائرِكم، فلا يُجديكم التَّحيُّل، ولا ينفعُكم الاعتذار[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿سَيَقُولُ﴾:

اسْتئنافُ ذِكْرِ المُخلَّفينَ بعد ذِكْرِ الإيفاءِ أوِ النَّكث

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ مستأنَفةٌ اسْتئنافًا ابْتدائيًّا لمناسبةِ ذكرِ الإيفاءِ والنَّكث، فكُمِّلَ بذكرِ مَنْ تخلَّفوا عن الدّاعي للعهد، فالمنافقون يقولون ذلك عند مرجعِ النَّبيِّ ﷺ إلى المدينةِ معتذرينَ كاذبين في اعْتذارِهم[2].

معنَى السّين ودلالتُها في ﴿سَيَقُولُ﴾:

تحقّقُ قولِ المنافقين للرسول ﷺ

السّينُ في قولِه تعالى: ﴿سَيَقُولُ﴾ للاسْتقبال، وهي في حقِّ إخبارِ اللّه أمرٌ واقعٌ لا محالة، فهي تفيدُ التَّحقُّقَ واليقينَ بما سيقولُه المنافقون؛ أيْ: بوعدٍ لا خُلْفَ فيه[3]، فأخبرَ اللّه رسولَه ﷺ بما بيَّتوه في قلوبهم، وفضَحَ أمرَهم من قبلِ أن يعتذروا، وهذه من معجزاتِ القرآنِ بالإخبارِ بالأحداثِ قبل وقوعِها[4].

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 170.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 161.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 299، وانظر: ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 33.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 161.

دلالةُ التعبير بالفعل المضارع ﴿سَيَقُولُ﴾:

الفعلُ المضارعُ ﴿سَيَقُولُ﴾ يدلُّ على تجدُّدِ واسْتمرارِ مقولتِهم تلك، فهم مستمرّون على نفاقِهم وكذِبِهم في: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾[1].

معنَى اللّام ودلالتُها في ﴿لَكَ﴾:

اللّامُ في قوله: ﴿لَكَ﴾ بمعنَى الاخْتصاص؛ أيْ: يخصُّكَ المنافقون بقولهم - معتذرينَ عن صُحبتِكَ وأصحابِكَ في الذَّهابِ لأداءِ العمرة ثمَّ المبايعةِ للّه وأداءِ مضمونها -: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾؛ "لعلمِهم أنَّك ألْطفُ الخَلْقِ عِشْرَةً، وأعْظمُهم شفقةً على عبادِ اللّه، فهم يطمعونَ في قَبولِك من فسادِ عُذرِهم ما لا يطمعونَ فيه من غيرِكَ من خُلَّصِ المؤمنين، وغابَ عنهم - لما عندَهم من غِلَظِ الأكباد - أنَّ الكذبَ بحضرتِكَ في غايةِ القَباحة؛ لأنَّكَ أعظمُ الخلقِ وأفْطَنُهم، مع ما يأتيكَ من الأنباءِ عن علّامِ الغُيوب"[2].

تخصيصُ الرَّسولِ ﷺ بالاغتدارِ لعظيمِ رأفتِه بأمَّتِه

غرض تقديم شِبْهِ الجملةِ ﴿لَكَ﴾ على الفاعل ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾:

تقديمُ شبهِ الجُملةِ في قوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ يُفيدُ تأكيدَ أمرِ نفاقِهم، تنبيهًا على جَلدِهم فيه ووقاصِهم به، ولُطفِ النَّبيِّ ﷺ وشدَّةِ رحمتِه ورِفْقِه وشفَقَتِه، واهْتمامِه بهم حرصًا على قيامِهم بأمرِ اللّه والتزامِ عهدِه والوفاءِ به.

تأكيدُ نفاقِهم مع اهتمامِ رسولِ الله ﷺ بهم

دلالةُ التعبير بالفاعل اسم مفعول جمعًا مُعرَّفًا باللّام ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾:

أوردَ النَّظمُ الكريمُ بيانَ مَنْ تخلَّفوا عن رسولِ اللّه ﷺ للذَّهابِ إلى مكَّةَ وأداءِ العمرةِ بصيغةِ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ وهي صيغةُ اسم مفعول جمعًا، للإيحاءِ بتحقيرِ أمرِهم، وبسلبِ العقلِ عنهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّهم طُرِدوا عن هذا المقامِ العظيمِ في صحبةِ رسولِ اللّه ﷺ ومُبايعتِه مع الصَّحابةِ

تحقيرُ أمرِ المُخلَّفينَ وتفاهةُ عقولِهم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 299.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 299.

ﷺ بيعةَ الرِّضوان؛ لأنَّهم أشرارٌ لئام، وهم جماعةٌ خلَّفهمُ الله عنك يا محمَّد ﷺ، ولم يرضَهم لصحبتِك في هذه العمرة، فجعلَهم كالشَّيءِ التّافِه الَّذي يُخلِّفُه الإنسان؛ لأنَّه لا فائدةَ فيه، فلا يُؤبَه له، ولا يُعبَأُ به[1]. وقد جاء التَّعبير بصيغة التَّخلف في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾، فَخُلِّفوا مأخوذ من التَّفعيل؛ وقد جاء مُطابقًا لمقتضى النَّظم الجليل، وموافِقًا لبلاغة الإعجاز، إذ لم يكن تَخَلُّفهم عن النَّبي ﷺ أمرًا أُجبِروا عليه، ولا عذرًا صادقًا حال بينهم وبَين المسير، بل هو تخلُّفٌ وقع باختيارهم، واستحبابهم القعود عن النَّفير، فناسب أن يُصاغ الفعل بصيغة (التفعُّل)؛ لما فيها من المُبالغة الدّالة على أن هذا الأمر كان منهم على عمدٍ وتصميم، دلالةً على استثقالهم للجهاد، وانصراف هممهم عن نصرة الدّين[2].

معنَى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها في ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾:

بعضُ الأعرابِ تخلَّفوا عن رسولِ الله ﷺ

﴿مِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ تبعيضيَّة، ذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ لَمّا أرادَ الاعْتمارَ ندبَ أصحابَه – ﷺ – لذلك، وندبَ من الأعرابِ والَّذين حولَ المدينةِ الشَّريفةِ مَنْ كان قد أقرَّ منهم بالإسلام، ولم يكنِ الجميعُ مُقرّينَ بالإسلام[3]. كما يَحْتَمِلُ أنَّ تكون ﴿مِنَ﴾ هنا بيانيَّة؛ على اعتبار أنَّ المُخلَّفين من الأعراب هم سوادهم وأغلبهم[4].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلْأَعْرَابِ﴾ وجمعِه:

الأعرابُ المتخلِّفونَ همُ ضعافُ الإيمان

جاء تعريفُ ﴿ٱلْأَعْرَابِ﴾ لأولئك الَّذين هم حولَ المدينةِ الشَّريفةِ ممّنْ كان قد أقرَّ بالإسلام، فلم يُرِدِ الله حضورَهم؛ لأنَّ إسلامَهم لم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 299 - 300.
(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 67.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 543.
(4) يرى بهجت صالح أن حرف الجر: (من) هنا، بيانيٌّ، ينظر كتابه إعراب القرآن الكريم: 9/ 396.

يكن خالصًا فلو حضروا لفسدَ بهمُ الحال، وهم أهلُ البادية الَّذين لم يتمكَّنِ الإيمانُ في قلوبهم، وعُرِفوا بالكذبِ والبُهتانِ والجُرأةِ على اللّه ورسولِه[1]. وعَبَّرَ بالجمع تشنيعًا على تصرفاتهم إذ اجتمعوا في صفة غاية في الحقارة، وهي صفة النفاق.

دلالة التَّعبيرِ بالماضي ﴿شَغَلَتۡنَآ﴾:

الـشـغـل عـن رسـول الله ﷺ موجبٌ للذَّمِّ

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي ﴿شَغَلَتۡنَآ﴾ للدَّلالةِ على تحقُّقِ ادِّعائهم في انْشغالِهم عن صُحبةِ الرسولِ ﷺ للذهابِ إلى مكَّةَ للعُمرة، لإماطةِ أيِّ شكٍّ أو ظنٍّ في عدمِ صدقِهم، وفيه مَذمَّة لهم.

غرض التعبير بالمُسنَد إليه ضمير جمع في ﴿شَغَلَتۡنَآ﴾:

جـرأةُ المتخلِّفينَ في كذبِهم

أسندَ النَّظمُ الكريمُ انْشغالَهم إلى ضميرِ جمعِ المتكلِّم، حيث تعلَّلَ الأعرابُ المتخلِّفون بقولهم: شَغَلَتنا إيهامًا بشدَّةِ انْشغالِهمُ الَّذي أقعدَهم عن دعوةِ رسولِ اللّه ﷺ للخروجِ معه إلى مكَّة، وفيه دلالةٌ على جُرأتِهم على اللّه ورسولِه القائمةِ على الكذبِ والبُهتان، إذْ لو صدقوا في إيمانِهم باللّه ورسولِه ما شغلَهم شيءٌ عن تلبيةِ دعوةِ رسولِ اللّه ﷺ[2].

دلالة التعبير بالجمع ﴿أَمۡوَٰلُنَا﴾ وسر الإضافة إلى ضميرِ التَّكلُّم:

حفظُ ما جُمِعَ من أموالِهم مع كـثرتـهـا أرجَـى للاعتذار

وردتِ الأموالُ بالجمعِ مع إضافتِه إلى ضميرِ التَّكلُّم في قوله تعالى: ﴿أَمۡوَٰلُنَا﴾؛ ليستدلوا بها على صدقِ اعتلالِهم بالشُّغلِ بكثرةِ أموالِهم نوعًا وكمًّا، وأنَّه ليس لهم مَنْ يقومُ بأشغالهم؛ فيُعذَروا بذلك[3]. ويجوزُ أن تكونَ علَّةُ إضافةِ الأموالِ في ﴿أَمۡوَٰلُنَا﴾ دون (أموال) "لأنَّ مجرَّدَ الجمعِ لا يَصلُحُ عذرًا؛ لأنَّه لا نهايةَ له، وأمّا حفظُ ما جُمِعَ من الشَّتات ومنعُ الحاصلِ من الفوائتِ يَصلُحُ عُذرًا، فقالوا: شغلَتنا أموالُنا، أي: ما صارَ مالاً لنا لا مطلقَ المال"[4].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 130، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 300.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 300.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 543.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 74.

دلالة العطفِ بالواوِ في ﴿وَأَهْلُونَا﴾ ونكتةُ التَّعلُّلِ بهم:

المبالغةُ في الاعتذارِ بحفظِ الأهلِ مع المالِ

جاءتِ الواوُ العاطفةُ في قوله: ﴿وَأَهْلُونَا﴾ للمبالغةِ في اعْتلالِهم، حيث لم يكن سببَ انشغالهم أموالُهم فقط؛ بلِ الأهلونَ كذلك، ولم يكن لهم مَن يقومُ بحفظِ أموالِهم زيادةً منهم في الاعْتلالِ والاعْتذار[1]. وتعلَّلوا بالأهلِ زيادةً منهم في الاحْتياط، وإيغالًا في الكذِب، فلو أنَّ قائلًا قالَ لهم: المالُ لا ينبغي أن يبلغَ إلى درجةٍ يمنعُكم حفظُه من متابعةِ الرَّسولِ ﷺ؛ لكان لهم أن يقولوا: فالأهلُ يمنعُ الاشْتغالُ بهم وحفظُهم عن أهمِّ الأمور[2].

غرض الإضافة إلى ضمير التكلم ﴿وَأَهْلُونَا﴾:

تأكيد الاعْتلالِ بعدمِ مَن يقومُ برعايةِ أهلِهم

قولُه: الأهلون، جمعُ (أهلٍ) على غيرِ قياس؛ لأنَّه غيرُ مُستَوْفٍ لشروطِ الجمعِ بالواوِ والنّونِ أوِ الياء والنّون، فعُدَّ ممّا أُلحِقَ بجمعِ المذكَّرِ السّالم، وأُضيفَ الجمعُ إلى ضميرِ التَّكلُّم تأكيدًا لاعْتلالِهم، ثمَّ إعذارِهم، فأهلوهم كثيرون يحتاجون إلى مَنْ يقومُ على رعايتِهم وتفقُّدِ أحوالِهم[3].

سرُّ تقديمِ الأموالِ على الأهلين:

بالأموالِ قِوامُ العَيْشِ والحياة

لمّا كان بالأموالِ قِوامُ العيشِ ومادَّةُ الحياةِ، قدَّمها المخلَّفونَ في اعتذارِهم على ذِكْرِ الأهلين، إذ بالأموال يكونُ سدُّ الخَلَّةِ، وتدبيرُ المعاشِ، وصلاحُ الحالِ؛ فكانت عندهم أوْلى بالذِّكر، ثمَّ أردفوها بذِكْرِ الأهل؛ لأنَّهم مع حرصِهم على الأموالِ كانوا أشدَّ مُحافظةً على الأهلين، وأكثرَ خوفًا على ذهابِهم وضياعِهم[4].

غرض حذفِ متعلَّقِ جملةِ ﴿شَغَلَتْنَآ﴾:

في قوله تعالى: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ أي: عن إجابتِكَ في هذه العمرة،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 488.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 74.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 543، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 161.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 488.

البيانُ عن خفايا نفوسِ المُخلَّفين بغاية الفصاحةِ والبلاغةِ

وهذا دليلٌ على كذبِهم وبُهتانِهم وجُرأتِهم على الله ورسولِه، فإنَّ مَن صَدقَ مع الله لا يَشْغَلُهُ عنه ﷺ شاغل، ومَن شغلَه عنه شيءٌ كان شُؤمًا عليه[1]. وتقدير المحذوف في شغلتنا: عن الخروجِ معك، وصرفَتنا عن إجابتِك في هذه النُّصرة، فلولا ذلك لكُنّا من السّابقين إليها، والممتثلين لأمرها، فإنّا إن تركناهم دون رعايةٍ ضاعوا، إذ لم يكن لنا من يلي أمرَهم ويدبِّرُ شأنهم، وقد نهَيتَ - يا رسولَ الله - عن تضييعِ المالِ والتفريطِ في العيالِ، فكان اعتذارُنا مبنيًّا على الحرصِ على ما أمرتَ بحفظِه، والرعايةِ لما أوجبتَ صونَه، فإن كنتَ ترى في ذلك تقصيرًا، واستشعرتَ فيه تفريطًا، فاستغفرْ لنا الله فما تخلفْنا إلا عَن اضطرارٍ، ولا قعدْنا إلا لعُذرٍ[2] - فطوي ذِكْر هذا التَّفصيل واستُغني عنه بذِكْر اشتغالهم بالأموال والأهلين في إيجاز عجيب جمع المعاني الكثيرة في ألفاظٍ قليلةٍ؛ فجاء البيانُ مُعبِّرًا عن خفايا نفوسِهم بغاية الفصاحةِ والبلاغةِ.

معنَى (الفاء) ودلالتها في ﴿فَٱسْتَغْفِرْ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرْ﴾ تَحْتَمِل السَّببيَّة؛ أيْ: سبَّبوا عن القولِ المُرادِ به السّوء[3]. وقد تكون الفاء فصيحةً "لأنها تُفصحُ عن شرطٍ مُقدَّرٍ، والتقدير: وإذا كان ذلك حاصلًا وواقعًا ﴿فَٱسْتَغْفِرْ﴾[4].

سرُّ إيثارِ فعلِ الاستغفارِ دلالةً وصيغةً:

سؤالُهمُ المغفرةَ أعْمَى بصيرتَهم عـن عـلـمِ الـلـه بحقيقتِهم

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ الاستغفارِ في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ على وزن اسْتفعِلْ - للدَّلالةِ على طلبِ المغفرة؛ أي: "اسْألْ لنا المغفرةَ من الله، إذ كانوا مؤمنين، فهو طلبٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّهم كانوا مؤمنين،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 300.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 300.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 300.
(4) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم: 9/ 135.

ولكنَّهم ظنّوا أنَّ اسْتغفارَ النَّبيِّ ﷺ لهم يمحو ما أضْمروه من النَّكث، وذَهَلوا عن علمِ اللّه بما أضمروه، كدَأبِ أهلِ الجهالة"[1].

معنَى اللّام ودلالتُها وسِرُّ التعبير بالقَيْد ﴿لَنَآ﴾:

اللّامُ في ﴿لَنَآ﴾ لامُ الاخْتصاص؛ أيْ: خُصَّنا بالاسْتغفار، وهذا من الجرأة والإمعان في النفاق، وجاءَ القيدُ ﴿لَنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَآ﴾ لمّا علموا أنَّ ذلك التخلُّفَ عنِ الرَّسول ﷺ كان معصية، فسألوا رسولَ اللّه ﷺ أن يستغفرَ لهم ويخصَّهم باسْتغفارِه بسببِ تخلُّفِهم عنه ﷺ، الَّذي لم يكنْ عنِ اخْتيار، بل عنِ اضْطِرار كما تَوَهَّموا.

تخصيصُهم بالاستغفار؛ كأنَّ تخلُّفَهم عنِ اضْطرار

دلالةُ التعبير بالمضارعِ المجموعِ مُسندًا لواو الجماعة ﴿يَقُولُونَ﴾:

اسْتخدمَ النَّظمُ الكريمُ المضارعَ المُسْنَدَ لواو الجماعة ﴿يَقُولُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ قولَهم هو ظاهرٌ على ألْسنتِهم فقط، وليس ذلك حقيقةً في قلوبِهم، "فيكون معنى يقولون: أي يُظهرون، والتَّعبيرُ بالمضارعِ إشارة إلى أنَّ هذا دَيْدَنٌ لهم لا يَنفكّون عنه"[2]. كما أنَّ قولهم في صيغة المضارع قد جاء استحضارًا للصورة والحال التي كانوا عليها[3]. وفي الإسناد إلى واو الجماعة كشفٌ عن اتّحادِهم في صفة النِّفاقِ حتى في القول الظاهر.

الكذِبُ دَيْدَنُ المنافقين

موقعُ جملةِ ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ مما قبلها ودلالته:

جملةُ ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ في موضعِ الحال، أي: والحالُ أنَّهم يقولونَ بألسنتِهم، تأكيدًا لمخالفةِ ظاهرِهم لباطنِهم. ويجوزُ أن يكونَ بدلَ اشْتمالٍ من جملةِ ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾[4]؛ فالحال هنا جاءت كاشفةً لنفاقِ القوم، مُبرزةً التناقضَ بين ظاهرهم وباطنهم، وموحيةً بضَعْفِ حُجَّتهم وتكلُّفِهم في الأعذار.

الكشفُ عن نِفاقِ القوم ببيانِ حالهم في مناقضة ظاهرهم لباطِنِهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 162.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 301، والعليمي، فتح الرّحمن: 6/ 339.
(3) فتح الرحمن في تفسير القرآن: 6/ 3355.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 162.

معنَى الباء ودلالتُها في ﴿بِأَلْسِنَتِهِم﴾:

قولُهم مصاحبٌ لألسنتهم مخالفٌ لقلوبهم

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِأَلْسِنَتِهِم﴾ للإلصاقِ والمصاحبة، أي: يقولون قولًا مُلصَقًا على ألْسنتِهم لا يُغادرُها مخالفًا لما في قلوبِهم الَّتي انْعقدت على ضعفِ الإيمانِ، والشَّكِّ في رسولِ اللّه ﷺ في قدرتِه على مواجهةِ كُفّارِ قريشٍ في منعِه بالقوَّةِ من أداءِ العمرة، وهم في حقيقةِ الأمرِ لا يُبالونَ باسْتغفارِك، وإنَّما هو كلامٌ جرَى على ألسنتِهم[1].

توجيهُ ذِكْر الألسُنِ هنا وذِكْر الأفواه في سورة آل عمران:

الإنباءُ عن مبالغةٍ واستحكامٍ وتمكُّنٍ في القصد لا يكون في ذِكْر الألسن

آثرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الألسنة) على (الأفواهِ) في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ مع أنَّ التَّعبيرَ بالأفواهِ دَأْبُه في المنافقين في إظهارِ ما يخالفُ ما في قلوبِهم، قال ابن عرفة: "والجواب: أنَّ قولهم هنالك (يعني آل عمران) أكثرُ وأعظمُ وأشنعُ؛ لأنهم قالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ [آل عمران: 167]، وبدليل قول اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: 167]؛ فدلَّ على كثرة قولهم، فنسب (الكثير) لـ(الأفواه)؛ إذ هي أوسع من (الألسنة)"[2].

وبهذا القول قال ابن الزبير الغَرْناطيُّ وزاد "قوله في الأولى: ﴿بِأَفْوَٰهِهِم﴾ [آل عمران: 167] ينبئ عن مبالغةٍ واستحكامٍ وتمكُّنٍ في اعتقادٍ أو قصدٍ لا يحصل من قوله: ﴿بِأَلْسِنَتِهِم﴾، ألا ترى قولَهم: (تكلَّمَ بملءِ فيهِ) حين يريدون المبالغة؟"، ثم ساق كلامًا متينًا ختمه بقوله: "فعبَّر بالألسنة إشعارًا بأنَّ حال هؤلاء ليس كحال المنافقين المقصودين في آية آل عمران؛ فلاختلافِ الطائفتين اختلفتِ العبارةُ عما صدر منهم"[3].

(1) العليمي، فتح الرّحمن: 6/ 339.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 34.
(3) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 94.

بلاغةُ التعبير بالمجازِ المُرسل في لفظِ الألْسِنة:

المبالغة في الكشف عن نفاقهم

عبّر بالألسنة على سبيل المجاز المُرسل وعلاقته الآلية، والأصل: (يقولون بكلامهم)، ففي ذكر الآلة مبالغة؛ كأنهم ليس في مضمون كلامهم أيُّ فائدة، وإنما يتحدث اللسان دون أن يكون له أثر في قلوبهم.

غرض الإضافة في ﴿بِأَلْسِنَتِهِم﴾ ودلالة التعبير بصيغة جموع القلة:

التهوين من شأنهم وضآلة تأثير كلامهم

في الإضافة تحقيرٌ لهم، ولكلامهم الناتج عن ألسنتهم، ويؤيده اصطفاء صيغة جمع القلة، إشارة إلى تفاهة أثر كلامهم، وتوهينًا لهم على كثرتهم، وكشفًا عن ضَعْفِهم وهوانهم على المؤمنين.

غرض التعبير بالمفعول به اسمًا موصولًا مُبهمًا في: ﴿مَّا لَيْسَ﴾:

الإمعان في إخفاء ما في قلوبهم من حقيقة النفاق وفضحه

عُبِّر بالمفعول به بالاسم الموصول الأعمِّ والأدْخَلِ في الإبهام، ليشاكلَ ما أضمروه من النفاق في قلوبهم، والتعمية عليه بالكلام الكذب، وليكون أشمَلَ لكلِّ ما وعَته قلوبُهُم من أكاذيبَ وحبِّ الدنيا وإيثارِها على حبِّ الله ورسوله.

دلالة النَّفْي بـ ﴿لَيْسَ﴾:

عَوْدُ النَّفي إلى كَذِبهم في انْشغالهم، وخُبْثهم في طلبِ الاسْتغفار

النَّفْيُ بـ ﴿لَيْسَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يَصرِف النَّفيَ للماضي، وهذا يعني أنهم لم يستقرَّ الإيمان في قلوبهم يومًا، والظّاهرُ أنَّه راجعٌ إلى الجملتَيْنِ المقولتَيْنِ من الشُّغْلِ، وطلبِ الاسْتغفار؛ لأنَّ قولَهم: شَغَلَتنا، كَذِبٌ، وطَلَبَ الاسْتغفار؛ خُبْثٌ منهم، وإظهارُ أنَّهم مؤمنونَ عاصون[1].

معنَى ﴿فِي﴾ ودلالتها في: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾:

عَبَّر بحرف الوعاء كشفًا عن إمعانهم في إخفاء النِّفاق والاجتهاد في التظاهر بالصدق، ولم يُغنِ عنهم هذا الاجتهاد مع الله شيئًا، وفيه فضحٌ لدواخلهم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 488.

غرض الإضافة في ﴿قُلُوبِهِمۡ﴾ وعِلَّةُ جمعِ (قلوب) على صيغة جموع الكثرة:

الإمعانُ في فضحِهم بالكشف عن حقيقة أمرهم في الشَّتاتِ وعدمِ الاتحاد

في إضافة القلوب إليهم تحقيرٌ لهم ولما وعَوْه فيها، وعَبَّر بصيغة الجمع الدّالِّ على الكثرة، إشارةً إلى شتات أهوائهم، وتفرُّقِ وحدتهم إذ تجاذبتهم الأموال والشياطين من كل جانب كما قال ربنا: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: 14] وهو مقابلٌ للتعبير بصيغة جمعِ القِلَّةِ في الألسن الموحي بوحدتهم واتحادهم.

دلالة الاستئناف في: ﴿قُلۡ فَمَن﴾:

وجوبُ الجوابِ لِمَن يخدعُ ويكذِب

لَمّا كان فعلُهم من تخلُّفِهم واعْتلالِهم وسؤالِهمُ الاسْتغفارَ، ظنًّا منهم أنَّهم يدفعونَ عن أنفُسِهم بذلك المكروهَ، ويُحصِّلونَ لها المحبوب، وكان كأنَّه قيل: قد عُلِمَ كذبُهم، فماذا يُقال لهم؟ اسْتأنفَ سبحانه الجوابَ بقوله ﴿قُلۡ﴾ - أي: يا محمَّدُ - قل لهم واعظًا - والحوارُ بينهما قائم -: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ الآية[1].

معنَى (الفاء) ودلالتُها في قوله: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ﴾:

بيانُ أنَّ الخيرَ والشَّرَّ بيدِ الله

يَحْتَمِل أن تكون الفاء هنا فصيحة واقعة في جواب شرط مُقدَّر؛ إذ المعنى: إنْ أراد الله إهلاككم، فمَنْ ذا الذي يملك دفع الهلاك عنكم أو ردَّ قضاء الله فيكم؟ فجاءت الفاء كاشفةً عن هذا التقدير مُفصحةً عنه، إذ لا مُعقِّب لحُكْمِه، ولا رادَّ لمشيئته، ولا مانعَ لما أراده سبحانه[2]. كما يَحتَمِل أن تكون الفاء للسَّببيَّة، حيث كان التعلُّل المذكور منهم سببًا في ورود هذا الاستفهام الذي أُريد به الإنكار عليهم[3].

غرض التعبير بالاستفهام ﴿فَمَن يَمۡلِكُ﴾:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ﴾ خرج عن معناه الحقيقيِّ إلى الإنكار وغرضه النفي، والمعنى: لا يَقْدِر أحدٌ على مَنْع

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 301.
(2) ياقوت، إعراب القرآن: 9/ 4383، والصافي، الجدول: 26/ 250.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 67.

شيء أراده الله من جَلْب نفعٍ أو دفع ضَرٍّ، وخرج المعنى في صورة الاستفهام ليجعلَهم في موقف المسؤولين، فيرجعون للبحث عن جواب فلا يجدون سوى الإقرار بقدرة الله وحده، والغايةُ من ذلك أن يَنْفوا حصول ذلك بأنفسهم، وهو خيرٌ من تلقينهم معنى النفي.

لا قـدرةَ لأحـدٍ على جَلْب نَفْع أو دَفْع ضَرٍّ أراده الله بعباده

بلاغة التعبير بالمجاز المُرسل في ﴿يَمْلِكُ﴾:

المِلك في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾، دالٌّ على القدرة والاستطاعة لا مجرَّدَ التصرّف، إذ لا يقدر أحدٌ على تغيير ما أراد الله أو أن يردَّ قضاءه، والمِلك في أصله إمساكٌ بقوة، وضبطٌ بإحكام، فهو حفظٌ عن حزم، كما يُقال: (لا أملك رأس البعير)؛ أيْ: لا أستطيع ضبطه وإمساكه، فإذا قيل: لا أملك، كان ذلك نفيًا للاستطاعة وإقرارًا بالعجز، إذ الأصل في الطاقة أنها إمساكٌ ومنع؛ فالمعنى هنا: فمَنْ ذا الذي يستطيع أن يُمسك عنكم شيئًا من قُدرة الله أو يمنع وقوع ما أراده بكم من ضرٍّ أو نفع. ففي لفظ ﴿يَمْلِكُ﴾ مجاز مرسلٌ، حيث استُعمل بمعنى القدرة والاستطاعة بعلاقة السَّببيَّة؛ لأنَّ المِلك الحقيقيَّ يستلزم القدرة والاستطاعة، فالملك هنا: القدرة على منع قضاء الله أو تغييره، وهو أمرٌ ممتنع على المخلوقين[1]. فقد استُعمل "المِلك" في معنى "المنع"، وهو ليس معناه الأصلي، وإنما هو لازم من لوازمه، وهو أبلَغُ في نفي أي قدرة للعبد على ردّ أمر الله[2].

نفيُ القُدرةِ على دفـع الـضـر أو جلب الخير عن كل مخلوق

سرُّ التعبير بالقيد ﴿لَكُم﴾ وغرض تقديمه على المفعول به ﴿شَيْئًا﴾:

اللام في ﴿لَكُم﴾ لام الملك، وقد جاءَ القيدُ ﴿لَكُم﴾ في قولِه: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم﴾ للإشارةِ إلى أنَّ ما هو داخلٌ في حيازتِكم من الأموالِ والأهلين، فلا ينفعُها حضورُكم إن أرادَ الله إهلاكَها أو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 253.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 67.

إهلاكَكم[1]. وقدَّمَه على المفعول به زيادة في التأكيد على عجز أي مخلوق عن نفعكم أو ضَرِّكم.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها، وسرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالة في ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

إثـارةُ المهابةِ في قلوبِهم ليعودوا إلى رُشدِهم

﴿مِّنَ﴾ هنا ابتدائية؛ والمعنى: لايستطيع أحدٌ مَنْعَ أمرٍ ابتداؤه من الله، والتَّعبيرُ بلفظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ لزرعِ المهابةِ في القلوب، أي: الملكُ الَّذي لا أمرَ لأحدٍ معه؛ لأنَّه لا كُفُؤَ له، ولا يَخْفَى عليه خافيةٌ ممّا تُضمرونَه في قلوبِكم وتخالفونَه بألسنتِكم، ولا يملكُ أحدٌ ردَّ أمرِه بالضَّر، أو بالنَّفع[2].

الغرض من تنكير ﴿شَيْـًٔا﴾:

التعميم في نفي دفع مراد الله

جاءَ التَّعبيرُ بالنَّكرَةِ ﴿شَيْـًٔا﴾ في قوله تعالى ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، لإفادةِ العموم، أي: لا أحدَ يملكُ أيَّ شيءٍ مع أمرِ اللّه في إنفاذِ شيءٍ أو منعِه، فلا أمرَ لأحدٍ مع اللّه؛ لأنَّه لا سَميَّ له ولا كُفُؤَ ولا نَظير[3].

بلاغة التعبير بالتتميم في قوله: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾:

الغرض التأكيد عـلى عـجـز المخلوقين عن النفع أو دفع الضَّرِّ مع مراد الله

كان يمكن الاكتفاء بنفي أن يملك أحدٌ لهم شيئًا إذا أراد الله ضَرَّهم دون زيادة ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾؛ إذ المعنى يُفهَم بمجرَّدِ نفي الملك في حال الضَّرّ، لأن مَن لا يملك دفع الضر، فهو عن جلب النفع أعجز، إلّا أنَّ هذه الزّيادة جاءت للتتميم والاستيعاب حتى لا يبقى في النفس مُتعلَّقٌ بوهمٍ، أو شبهةٌ بأن النفع قد يُنال من غير الله كما أنَّ الضُّر لا يُدفع إلا به، فجاءت العبارة مستوفيةً للمعنيَيْن جميعًا، فنُفيتِ القدرة على جلب النفع كما نُفيت القدرة على دفع الضرّ، تحقيقًا لمعنى الكمال والتَّمام في التَّصرف.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 18/ 302.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 301.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 301.

دلالةُ التعبير بالماضي في ﴿أَرَادَ﴾ ودلالة التعبير بـ ﴿إِنْ﴾:

تحقُّق إرادةِ الله على وفْقِ علمِه إعطاءً أو مَنْعًا

عَبَّر بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية، وبدأ بالضَّرِّ دلالة على قلة وقوع ذلك من الله بخلقه، وجاء التعبير بالفعل الماضي ﴿أَرَادَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾، للدلالة على تحقُّق إرادته سبحانه ومشيئته، فما شاءه الله قد جرى وفق علمه المحيط، فلا مردَّ لقضائه، ولا مُعَقِّبَ لحُكْمِه، فإذا أعطى النفع لعباده، أو أصابهم بضرٍّ، فذلك بإرادة نافذة لا يُعطِّلها شيء.

معنَى الباء ودلالتها في ﴿بِكُمْ﴾:

الباءُ في ﴿بِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ للإلصاقِ أو المصاحَبة؛ أيْ: إن أرادَ إلصاقَ الضُّرِّ بكم، أو جَعْلَه مصاحبًا لكم لا يُفارقُكم.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿بِكُمْ﴾:

العناية بالتهديد والوعيد قد تكون سببًا لرَدّهم إلى ربِّهم

قَدَّمَ النَّظْمُ الكريمُ شِبْهَ الجملة ﴿بِكُمْ﴾ على المفعول به للعناية والاهتمام بتهديد المخاطَبين، ويؤيِّدُه التعبيرُ بكاف الخطاب مما صعّد من شأن التهديد والوعيد لما في الخطاب من المواجهة بالتهديد.

غرض تنكير المفعول به: ﴿ضَرًّا﴾:

التعميم في الضُّرِّ يُضاعف من التحذير

آثرَ النَّظْمُ الكريمُ لفظَ ﴿ضَرًّا﴾ نكرةً لإفادةِ العموم؛ "أيْ: نوعًا من أنواعِ الضَّررِ عظيمًا أو حقيرًا، فأهْلَكَ الأموالَ والأهلين، وأنتُم مُحتاطون في حفظِهما، فلا ينفعُها حضورُكم أو أهْلَكَكُم أنتم"[1].

معنى ﴿أَوْ﴾ ودلالتُها في ﴿أَوْ أَرَادَ﴾:

مِنَ المخلَّفين مَنِ ارْتدَّ ومنهم مَن ثَبَت

﴿أَوْ﴾ للعطف والتقسيم، وقد دلَّ تصنيفُه ﷺ لهم إلى صِنْفَيْن على: أن إرادته قد تعلَّقت بإلحاق الضرِّ ببعضهم، إذ كان فيهم مَنْ زاغ عن الحقِّ وارتدَّ زمن الفتنة، كما تعلَّقت إرادتُه بإنعامِ آخرين،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 301 - 302.

إذْ ثبتوا على الإسلام؛ فكان لهم النفع والنَّجاة. ففي هذا التَّصنيف إشارةٌ إلى سَبْق العلم الإلهي بمصاير العباد، وأنَّ ما أصابهم من ضرٍّ أو نفع، إنما هو بمشيئته النافذة، وقضائه المُبْرَم.

فائدةُ التَّكرارِ اللَّفظيِّ لجملةِ ﴿أَرَادَ بِكُمْ﴾:

الـضُّـرُّ والـنَّـفـعُ منوطٌ بإرادةِ الله وحدَه

تكرَّرَ اللَّفظُ ﴿أَرَادَ بِكُمْ﴾ للدَّلالةِ - مع التَّأكيد - أنَّ الضُّرَّ والنَّفعَ منوطٌ بإرادةِ اللّٰه تعالى أي: "الإرادةُ الَّتي جرت على وفقِ علمِه من إعطائِه النَّفعَ إيّاهم، أو إصابتِهم بضرٍّ، وفي هذا الكلامِ توجيهٌ بأنَّ تخلُّفَهم سببٌ في حرمانِهم من فضيلةِ شُهودِ بيعةِ الرِّضوان، وفي حرمانِهم من شهودِ غزوةِ خيبَر بنَهيِه عن حضورِهم فيها، وكلُّ ذلك متعلِّقٌ بإرادةِ اللّٰه تعالى في إيصالِ ما يَضرُّهم أو ما ينفعهُم"[1].

بلاغة التعبير بالطِّباق بين ﴿ضَرًّا﴾ و﴿نَفْعًا﴾:

اللهُ القديرُ على الشيءِ وضدِه

طابَقَ النَّظمُ الكريمُ بين ﴿ضَرًّا﴾ و﴿نَفْعًا﴾ في قوله: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ بيانًا لجلال القادر على الضِّدَّيْن؛ وهذا أنسب لمقام التهديد والوعيد، ومن حُسن المطابقة جاءا مُنَكَّرَيْن؛ للتَّعميم، تناسبًا مع القدرة والجلال، وبدأ بالضر تناسبًا مع سياق التهديد.

بلاغةُ التَّعبير باللَّفِّ والنَّشرِ في جملةِ إرادةِ الضُّرِّ والنَّفع:

في المضرَّةِ والنَّفعِ نفيٌ لدفعِ المقدَّرِ من خيرٍ وشرّ

في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾؛ فنُّ اللَّفِّ والنَّشْر، إذ كانَ الأصل: فمَن يملكُ لكم من اللّٰه شيئًا إنْ أرادَ بكم ضَرًّا، ومَنْ يحرمكُمُ النَّفعَ إنْ أرادَ بكم نفعًا؛ لأنَّ مِثْلَ هذا النَّظم يُستعمَلُ في الضُّرّ، وكذلك وردَ في الكتابِ العزيزِ مُطَّردًا، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: 41][2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 163.
(2) صافي، الجدول: 13/ 252.

وسرُّ اختصاصِه بدفعِ المضَرَّةِ "أوّلاً: أنَّ الملكَ مضافٌ في هذه المواضعِ باللّام، ودفعُ المضرَّةِ نفعٌ يُضافُ للمدفوعِ عنه، وليس كذلك حرمانُ المنفعة، فإنَّه ضررٌ عائدٌ عليه لا له؛ فإذا ظهرَ ذلك فإنَّما انْتظمتِ الآيةُ على هذا الوجه؛ لأنَّ القسمَيْنِ يشتركان في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما نفيٌ لدفعِ المقدَّرِ من خيرٍ وشرّ، فلمّا تقارَبا أدْرَجَهما في عبارةٍ واحدة، وخصَّ عبارةَ دفعِ الضَّرّ؛ لأنَّه هو المتوقَّعُ لهؤلاء، إذِ الآيةُ في سياقِ التَّهديدِ أو الوعيدِ الشَّديد، وهي نظيرٌ قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: 17]، فإنَّ العصمةَ تكونُ من السّوء لا من الرَّحمة"[1].

توجيهُ المُتشابه اللَّفظيِّ بين هذه الآية وآية المائدة:

بيان عموم الخطاب هنا للناس أجمعين وتقييده في آية الفتح بالمُخَلَّفين

من لطيف المُتشابه اللَّفظي بين قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ زيادة لفظة ﴿لَكُم﴾ هنا في سورة الفتح على ما في سورة المائدة وهو قوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: 17]: ففي آية المائدة عمومٌ يستدعي الإطلاقَ وعدمَ التَّقييد بالمخاطَبين، وفي سورة الفتح خصوصٌ يستدعي التَّخصيصَ بآية الخِطاب للمواجَهين به، وذلك أنَّ الإخبار في سورة المائدة إنَّما هو للنَّصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17]، وهذا حكاية قولهم، ثمَّ أعلَمَ تعالى بقدرته وقهره للكلِّ فقال: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: 17] أيْ: (فمَن يدافع مراده في خلقه إن أراد هلاكهم)، ثمَّ ذكر سبحانه خَلْقَهُ المقهورين من سكّان الأرض فبدأ بالمسيح وأمِّه عليهما السلام، ثمَّ قال: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 17] فعَمَّ الكُلَّ، فلم يكن ليُناسب هذا العموم أداة خِطابٍ تَخُصُّ.

أمّا آية الفتح فقبْلَها إخباره سُبحانه عن المُتَخَلِّفينَ عن غزوة الحديبيَةِ فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 493.

أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾، ثُمَّ أعلَمَ تعالى نبيَّه ﷺ والمؤمنين بأنَّ قول المُخَلَّفينَ قولٌ بألسنتهم غيرُ مُطابق لما في قلوبهم فَقال: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾؛ أيْ: قلْ - يا محمَّد - مَن يملك لكم مَعْشَرَ المُخَلَّفينَ من الله شيئًا؟ أيْ: من يدفعُ عنكم الضُّرَّ إن أراده بكم، أو يوصِلُ إليكمُ النَّفع إنْ مَنَعَهُ عنكم؟ فالإخبار إنَّما هو عنهم وتقدير النَّفع والضُّر مرفوعًا أو لاحقًا خاصٌّ بهم لم يُرِدْ بذلك غَيْرَهم؛ فَوَرَدَ بخطاب المواجهة فقال: ﴿لَكُم﴾ ولم يكن بُدٌّ من ذلك ليُعلم أنَّ الإخبار عنهم والخطاب بما بعدُ لهم؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسب ويَجِبُ ولا يُتَصَوَّر فيه العَكْسُ[1].

معنى ﴿بَلۡ﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾:

حرفُ ﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ "إضرابٌ لإبطالِ قولِهم: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾، وبه يزدادُ مضمونُ قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ تقريرًا؛ لأنَّه يتضمَّنُ إبطالًا لعُذرِهم، ومن معنَى الإبطالِ يحصُلُ بيانُ الإجمالِ الَّذي في قولِه تعالى: ﴿كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ إذ يفيدُ أنَّه خبرٌ بكذِبهم في الاعْتذار، فلذلك أبْطلَ اعْتذارَهم بحرفِ الإبطال"[2]، فهو إضرابٌ عمّا زعموه، وإبطالٌ لمقالتهم بعد كشف فسادها على فرض التسليم بصدقها؛ أيْ: ليس الأمر على ما يدَّعون؛ بل إنَّ الله تعالى كان خبيرًا مُحيطًا بجميع الأعمال، لا تخفى عليه خافيةٌ، ومن جملتها تخلُّفُكم، وما انطوت عليه نفوسكم من الدوافع الخَفيَّة لذلك[3].

إبطالُ اعْتذارِهم الكاذب

دلالةُ التعبير بفعل ﴿كَانَ﴾ الماضي في ﴿بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ﴾:

في اسْتعمالِ فعلِ الكينونةِ الماضي ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى ﴿كَانَ

تهديدُ المخلَّفين بعلمِ الله حقيقةَ كذِبِهم

(1) الغرناطيُّ، ملاكُ التّأويل: 1/ 125.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 158 - 159، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 163 - 164.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 107، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 391.

ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تهديدٌ ووعيدٌ، فالله ﷻ مُطَّلِعٌ على ما في قلوبِهم من إنكارِ ما يقولونَه بألسنتِهم كذِبًا وزورًا[1]. وقد يفيد فعلُ الكينونة الماضي توكيدَ التهديد وتقويتَه.

سرُّ التعبير بالاسم الجليل في: ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾:

زَرْعُ المهابةِ في قلوبِ المخلَّفين بوعيدِهم على كذِبهم

أظهرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لزَرْعِ المهابةِ في قلوبِهم؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تهديدٍ ووعيد، فالله ﷻ هو المحيطُ أزَلًا وأبَدًا بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا، ومن ذلك ما انْطوت عليه قلوبُكم وما كان ظاهرًا على ألسنتِكم وأعمالِكم[2].

معنَى (الباء) ودلالتُها في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

إحاطةُ علمِ الله بجميعِ أعمالِ عباده

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ للملابَسةِ أو المصاحَبة؛ أي: علمُ اللهِ مُلابسٌ ومُحيطٌ بكلِّ أعمالِكم، لا يفوتُه شيءٌ منها، وخبيرٌ بجميعِ ما تعملونَه من الأعمالِ الَّتي من جُملتِها تخلُّفُكم شكًّا ونفاقًا في قلوبِكم[3].

دلالةُ استعمالِ (ما) بين الموصوليَّةِ والمصدريَّة:

علمُ الله بعدمِ صدقِهم وسوءِ اعْتقادهم

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ اسْمٌ موصولٌ بمعنَى الَّذي، أي: بالَّذي تعملون، أو مصدريَّة، أي: بعملِكم.

فـ (ما) في كلا المعنيَيْن تفيدُ علمَ اللهِ بعدمِ صدقِهم في الَّذي يعملونَه، أو في عملِهم، أي: في اعْتقادهم، أي: ما اعْتقدوه في قلوبِهم من الشَّكِّ والنِّفاق، ممّا هو من أسبابِ تخلُّفِهم عن نفيرِ الرَّسولِ ﷺ، وكثيرًا ما سمَّى القرآنُ الاعْتقادَ عملًا[4]. وسِرُّ اصطفاء (ما) العموم لكونها أعمَّ الموصولات، وأدْخَلَها في الإبهام.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 164.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 302.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 302، والشّوكاني، فتح القدير: 5/ 64.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 164.

دلالة التعبير بالفعل المضارع ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مُسنَدًا لواوِ الجماعة:

اسـتـمـرارُ علمِ الـلـه بـجـمـيـعِ أعمالِهم ظاهرةً وباطنة

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ الفعلِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مضارعًا مُسنَدًا لواوِ الجماعة، للإشارةِ إلى أنه مهما وقع منهم من عمل أو تجدُّدٍ من تَخَلُّفٍ واستمرَّ من اعتذار؛ فإنَّ الله محيط بأعمالهم ومقاصدهم فيها إحاطةً تامَّةً، لا يَخفى عليه شيءٌ منها.

الغرضُ من تقديم شِبهِ الجُملة ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على الخبر:

الاهْـتـمـامُ بـذِكْـرِ أعـمـالِـهـمُ الـقـائـمـةِ على الشَّكِّ والنِّفاق

جاء تقديمُ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على مُتعلَّقِة ﴿خَبِيرًا﴾ "لقصدِ الاهتمامِ بذكرِ عملِهم هذا وبيانِ سوئه، حيث أقْصاهم عنِ الذَّهابِ مع رسول الله ﷺ لأداءِ العُمرةِ وما حدثَ مع أصحابِه من بيعةِ الرِّضوان"[1].

الغرض من تنكير الخبر ﴿خَبِيرًا﴾ وصَوْغِه على زِنَةِ المبالغة:

عـمـومُ عـلـمِـه تـعـالى بـبـواطـنِ الصُّدور

جاء تنكيرُ الخبرِ في قوله تعالى: ﴿خَبِيرًا﴾ لبيانِ عمومِ علمِه تعالى ببواطنِ الأمور، أي: يعلمُ الله بواطنَ أمورِكم وجميعَ ما تُخفونَه ممّا لا تريدون إظهارَه، ممّا في قلوبِكم من شكٍّ ونفاقٍ دفعَكم للتَّخلُّفِ عن رسول الله ﷺ، كما يعلمُ أنَّ ما تقولونَه بألسنتِكم كذبٌ وبُهتان[2]. وجاء صَوْغُ ﴿خَبِيرًا﴾ على زِنةِ المبالغة للدلالة على إحاطة علم الله التامّ والدقيق بجميع الأعمال، ظاهرِها وباطنِها، صغيرِها وكبيرِها، خفيِّها وجَليِّها، والَّتي من جُملتِها تخلُّفُكم وما هو من مباديه، إذِ المقامُ مقامُ تهديدٍ ووعيد[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 164.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 302.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 159، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 164.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والخمسون،
سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 56 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-29-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 56 : المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-29-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9075646 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"